

محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).. نبي الرحمة والهدى



قال تعالى: (وَإِنَّ زَكَرِيَّا لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: 4). شكّلت حياة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) المثل الأعلى للإنسانية في جميع أحوال الحياة وأوجهها، في السلم والحرب، في الحياة الزوجية، مع الأهل والأصحاب، في الإدارة والرئاسة والحكم والسياسة، في البلاغ والبيان، فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو المثل الكامل. قال الله تعالى: (إِنَّ زَكَرِيَّا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (يس: 3-4). فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يفيض رحمة في خلقه وسلوكه وأدبه وشمائله، فلا يمل عبء بلاغ هذه الرحمة إلى العالمين إلا رسول رحيم ذو رحمة عامّة شاملة فيصا طبع عليها ذوقه ووجدانه، وصيغ بها قلبه وفطرته. قال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة: 128). فهو مثل أعلى للرحمة الإلهية لذلك وصفه الله تعالى بأنّه رؤوف رحيم يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يُمثّلها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ذلك لأنّه «بالمؤمنين رؤوف رحيم» ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضاً - إلى جانب المؤمنين - الاستفادة من هذه الرحمة كذلك، فعندما قيل له: ادع على المشركين قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «إني لم أبعث لعنانياً، وإنما بُعثت رحمة». فالدين الإسلامي هو دين الرحمة والمحبة والسلام والدعوة إلى الخير،

وما عالميته وتشريعه للقتال والجهاد إلا بدفع الظالم ورفع ظلمه عن المظلومين.

يقول ﷻ تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيَّ نَفْسَهُ الرَّحْمَةَ) (الأنعام: 54). ويقول ﷻ تعالى: (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (يوسف: 64)، ونحن دائماً نُردِّد في أوّل أعمالنا: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (الفاتحة: 1). ويقول النبي (صلى ﷻ عليه وآله وسلم): «لمّا خلق ﷻ الخلق كتب عنده فوق عرشه: إنّ رحمتي سبقت غضبي». فرحمة ﷻ سبحانه واسعة، ولا يعلم مداها إلا هو، فهو القائل سبحانه: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف: 156). وعن النبي (صلى ﷻ عليه وآله وسلم): «جعل ﷻ الرحمة مائة جزءٍ، فأمسك تسعة تسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق؛ حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». وعنه (صلى ﷻ عليه وآله وسلم): «أرحم من في الأرض، يرحمك من في السماء» و«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» فالمسلم رحيم في كلِّ أمورهِ؛ يعاون أخاه فيما عجز عنهُ؛ فيأخذ بيد الأعمى في الطرقات ليجنّب به الخطر، ويرحم الخادم؛ بأن يحسن إليه، ويعامله معاملة كريمة، ويرحم والديه، بطاعتها وبرّهما والإحسان إليهما والتخفيف عنهما. وفي نفس الوقت حدّس النبي (صلى ﷻ عليه وآله وسلم) من الغلظة والقسوة، وعدّس الذي لا يرحم الآخرين شقيّاً، فقال (صلى ﷻ عليه وآله وسلم): «لا تُنزع الرحمةُ إلا من شقيٍّ» وقال (صلى ﷻ عليه وآله وسلم): «لا يرحم ﷻ من لا يرحم الناس».

يقول الشاعر:

أرحم بئني جميع الخلق كُلاًّ هُمُّ

وقرّيرٌ كبيرهم وأرحم صغيرهم

وانظُرْ إليهم بعين اللطْفِ والشَّفَقَةِ

ثمّ ارعَ كلَّ خلاقٍ حقٍّ من خلاقه

